النقد الانطباعي في العصر الجاهلي: مفهومه ومجالاته وصوره.

د/جلول دواجي عبد القادر.

جامعة حسيبة بن بوعلي –الشلف-.

أولا: الشعر أهم نتاج الإبداع في العصر الجاهلي:

يعد الشعر من أجمل الفنون عند العرب التي كانوا يحتفون بها ويمجدونها، فطالما كانوا يجتمعون حول الشعراء ليسمعوا لهم ويصفقون لقصائدهم، وكانت هناك أسواق العرب كعكاظ ومجنة وذي المجاز، وفيها كان العرب يجتمعون للتجارة، وكان الشعراء ينتهزون فرصة هذا الاجتماع ليلقي كل منهم ما أعد من شعر، وكانت قبيلة الشاعر تقف حوله وهو ينشد شعره تشجعه وتفخر، وكانت أمهات القصائد تختار لتعلق في الكعبة غير بعيد عن معبوداتهم، وكان عكاظ أشهر الأسواق في مجال الشعر.[1]

باختصار كما قال ابن سلام:" وكان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به يأخذون وإليه يصيرون" [2].

وفيما يلي نماذج تدل على مدى ما كان للشعر من تأثير عميق عند العرب:

1- الحطيئة وبنو أنف الناقة: وأنف الناقة هو جعفر بن قريع، وإنما سمي أنف الناقة، لأن قريعا نحر جزورا، فقسمه بين نسائه، فقالت أم جعفر بن قريع وهي الشموس: انطلق إلى أبيك فانظر هل بقي عنده شيء؟ فأتاه، فلم يجد عنده إلا رأس الجزور فأدخل جعفر وهو غلام يده في أنف الناقة، وجر الرأس إلى أمه فسمي به، وكان بنوه يغضبون إذا نودوا بهذا اللقب، فلما قال فيهم الحطيئة هذا البيت جعلوا يتبجحون به:

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا؟

فصار هذا اللقب فخرا لهم ومدحا[3]، وبعدما زارهم الحطيئة وأكرموه ورأى ضيافتهم وكرمهم.

2- **حسان بن ثابت وبنو عبد المدان:** كان بنو المدان يمتازون بطول الأجسام وعظمها، وكانوا يفخرون بذلك على الناس فهجاهم حسان بن ثابت بقصيدة قال فيها:

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ جسم البغال وأحلام العصافير.

فشاع هذا البيت بين الناس وحفظوه، وكان بنو عبد المدان كلما ظهر واحد منهم بجسمه الفاره صاح الأولاد يرددون هذا البيت حتى أصبح بنو عبد المدان يستحون من طولهم ويتمنون لو كانوا قصارا، فاتصل بعضهم بحسان بن ثابت وقدم له هدية ثمينة، وشكا له ما نالهم بسبب شعره وقال حسان: سأصلح ما أفسدت، ونظم قصيدة أخرى قال فيها:

وقد كنا نقول إذ التقينا بذي جسم يهاب وذي بيان

كأنك أيها المعطي بيانا وجسما من عبد المدان.[4]

3- **الأعشى المحلق الكلابي:** كان الأعشى يوافي سوق عكاظ في كل سنة وكان المحلق الكلابي مئناثا مملقا، فقالت له امرأته: يا أبا كلاب، ما يمنعك من التعرف لهذا الشاعر، وما رأيت أحدا اقتطعه إلى نفسه إلا وأكسبه خيرا، قال: ويحك! ما عندي إلا ناقتي وعليها الحمل! قالت: الله يخلفها عليك، قال: فهل له بد من الشراب والمسوح؟ قالت: إن عندي ذخيرة، ولعلي أن أجمعها، قال: فتلقاه قبل أن يسبق إليه أحد وابنه يقوده فأخذ الخطام، فقال الأعشى: من هذا الذي غلبنا على خطامنا؟ قال: المحلق، قال: شرف كريم، ثم سلمه إليه فأناخه، فنحر له ناقته وكشط له عن سنامها وكبدها، ثم سقاه، وأحاطت به بناته يغمزنه ويمسحنه، فقال: ما هذه الجواري حولي؟ قال: بنات أخيك وهن ثمان، شريدتهن قليلة، قال: وخرج من عنده ولم يقل فيه شيء، فلما وافى سوق عكاظ إذا هو بسرحة قد اجتمع الناس عليها وإذا الأعشى ينشدهم:

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرق

تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندي والمحلق

ثم نادى يا معشر العرب: هل فيكم رجل مذكار يزوج ابنه إلى الشريف الكريم؟ قال فما قام من مقعده وفيهن مخطوبة إلا وقد زوجها، وقال في أول القصيدة :

أرقت وها هذا السهاد المؤرق وما بي من سقم وما بي معشق[5]

ثانيا: النثر وأشكاله عند العرب الجاهلية:

لقد عنى العرب بالشعر في جاهليتهم، وجعلوه في المرتبة الأولى والمقام الأول، ولكن هذا لا يعني أنهم لم يكن لديهم نثر، فقد توفرت عندهم أشكال مختلفة من النثر كالخطابة والمناظرات والوفادات وسجع الكهان وما إلى ذلك.

فإذا عرف قدامة الشعر بأنه " القول الموزون المقفى يدل على معنى" [6] فإن النثر الفني هو الكلام الذي يصور العقل والشعور، ولا يتقيد بوزن ولا قافية، وهو الذي يندرج تحت مجموعة من الأشكال كالخطابة والرسالة والمقامة والمقالة، والثلاثة الأخيرة لم تكن موجودة آنئذ فكانت الخطابة.

كانت الخطابة عند العرب سليقة كما كانت في الشعر، فهي أهم وسيلة في الحياة بعد الشعر، لتوفر عوامل قيامها مثل الحروب والمنافرات والوفادات والمناظرات والمؤتمرات والزواج.[7]

يقول أبو عمرو بن العلاء: " كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب، فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة (عامة الناس) (مدح وثناء وشكر) وتسرعوا إلى أعراض الناس فصار الخطيب عندهم فوق الشاعر". [8]

ومن أشهر خطباء الجاهلية المفوهين أكثم بن صيفي، وقس بن ساعدة الايادي وهانئ بن قبيصة الشيباني وعامر بن الظرب العدواني، وحاجب بن زرارة وغيرهم.[9]

ثالثا: أيهما أسبق في الوجود الشعر أم النثر؟: هناك رأيان:

الرأي الأول: إن النثر أقدم من الشعر وتعليلهم لأسبقية النثر أن هذا مطلق والأخير مقيد، والمطلق أسبق وجودا من المقيد وأسهل تناولا لخلوه من الوزن والقافية – يقول ابن رشيق : " وكان الكلام كله منثورا، فاحتاجت العرب إلى التغني بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام فلما تم لها وزنها سموه شعرا" [10]، لأنه شعروا به أي فطنوا.

– استمر هذا الرأي سائدا إلى أن ذاعت في أوروبا نظرية جديدة تقول: "إن الشعر أسبق في الوجود عند جميع الأمم من النثر الفني" وممن آمن بهذا الرأي ودافع عنه الدكتور طه حسين.[11]

الرأي الثاني: يقول بأن الشعر أسبق من النثر لأن الكلام الشعري يساير ألحان الغناء وتستسيغه الآذان بينما النثر عسير لا يطاوع الترجيع، فالعربي في الجاهلية تخير الكلمات المتسقة مع النغم الذي في النفس، وتصرف في بعضها، فحرك الساكن وسكن المتحرك، وقصر الممدود، ومد المقصور، رخم بعض الأسماء إلى غير ذلك من الضرورات الشعرية ثم تصرف في الأوزان نفسها بحذف وزيادة وتسكين وتحريك مما يعد من العلل والزحافات العروضية، فصارت اللغة التي يتغنى بها الناس موزونة تلائم حركاتها ووقعاتها الأنغام التي يتغنون بها والألحان التي يرجعونها.[12]

فالشرطان اللذان يجب توافرهما في الشعر هما: الوزن [13]والقافية والاتصال[14] بالشعور، فإذا وجدنا نوعا من الأدب يجمع الشرطين كان ذلك شعرا، أما إذا وجد الوزن والقافية دون الاتصال بالشعور فيكون نظما لا شعرا، وإذا وجد الشرط الثاني دون الأول فيكون نثرا شعريا وهو الذي يكاد يكون شعرا لولا أنه فقد الوزن.

الشعر = وزن وقافية + اتصال بالشعور.

النظم = وزن وقافية – اتصال بالشعور.

النثر الشعري = اتصال بالشعور – وزن وقافية

رابعا: الفرق بين الشعر والنثر: وضع النقاد مجموعة من الفروق بين الشعر والنثر منها:

1- الوزن والقافية.

2- غلبة الخلق والإبداع على الشعر: وذلك بما ينشئه الشاعر من الصور الخيالية، والإبداع هو إعطاء الصورة للمادة المجردة، وجعل ما هو مشوش، منظما، وقلما كان النثر موضوعا للخلق والإبداع.

3- الشعر يخاطب العاطفة مباشرة، وذلك بما فطر عليه الشاعر من لطف النظر والإلهام أو اللقانة، ومن ثم كان اليونان يسمون الشاعر خالقا، واعتقد العرب أن لكل شاعر شيطانا يلقي إليه الشعر.

4- صعوبة النثر وسهولة الشعر: فالنثر لخلوه من الوزن والقافية قد يبدو أسهل من الشعر، ولكنه في الحقيقة أصعب منه وأكثر قيودا منه، ومن هذه القيود: المنطق الدقيق والوضوح التام، أي تسلسل الأفكار ووضوح اللغة.

5- الاختلاف بين لغة الشعر ولغة النثر: فالشعر لغته الخاصة التي لا يجوز إلا فيها وهذه اللغة بطبيعتها غير اللغة التي يتطلبها أداء النثر، فالشاعر له المقدرة على اختيار الألفاظ التي تثير المشاعر لذلك فمن المستحيل ترجمة لغة هذا الشعر إلى شعر في لغة أخرى، وما يمكن ترجمته في هذه الحالة هو ترجمة معاني الشعر، أما ما فيه من خيال وصور وعاطفة، فأمر يتحدى الترجمة، ومن هنا فإن هناك ألفاظ لا تصلح إلا في النثر ولا يحسن وضعها في الشعر مثل: "أيضا"، وعبارة " ما الفرق"، وإذا أتت فيه كانت سمجة.

خامسا: فضاءات الظاهرة النقدية في العصر الجاهلي:

1- **أسواق العرب**: وأشهرها سوق عكاظ: وهو سوق تجاري يباع فيها ويشترى، وكان يأتيها العرب لذلك من كل فج حتى من الحيرة، وكانت مجمعا لقبائل العرب يفدون عليها للصلح أو للتعاهد أو التفاخر، كما كانت موعدا للخطباء والدعاة، وكانت فوق ذلك بيئة من بيئات النقد الأدبي، يلتقي الشعراء كل عام، ومما يذكر أن النابغة الذبياني كانت تضرب له قبة من أدم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء تعرض عليه أشعارها" [15]، ويقوم هو بالتحكيم والمفاضلة بين الشعر والشعراء.

2- **مملكة المناذرة**: كانت مملكة الفرس معرضة لهجمات بعض القبائل البدوية التي كانت تعيش شمال الجزيرة وكانت هجمات هذه القبائل سريعة، يختطفون خلالها ما يستطيعون الحصول عليه، ثم يفرون عائدين فيتوغلون في قلب الجزيرة حيث لا تستطيع جيوش فارس أن تتبعهم خوفا من وعورة الطريق وقلة المياه، ولهذا عمد الفرس إلى أن يقيموا حاجزا بينهم وبين العرب، وكان ذلك الحاجز عبارة عن بعض القبائل العربية، وأمد الفرس هذه القبائل بالعون والسلاح والمال، وكانت هذه القبائل تعرف مسالك الجزيرة وتستطيع الوقوف في وجه هجمات العرب، بهذا تكونت بالحيرة مملكة، ومن ملوكها: النعمان بن المنذر وعمرو بن عدي والمنذر بن ماء السماء وعمرو بن هند ابن هذا الأخير[16]

3- مملكة غسان: هناك تشابه بين قيام مملكة غسان ومملكة الحيرة من عدة وجوه، فنفس القبائل التي هاجرت من اليمن إلى شمال الجزيرة وأقامت إمارة الحيرة، هي نفسها التي أقامت في الجهة المقابلة إمارة الشام لحماية ظهر الروم من هجمات القبائل البدوية العربية، ولعل أول القبائل التي حظيت بهذه المكانة هي قبيلة الضجاعمة ومكثت هذه القبيلة زمنا طويلا وملكهم هو زياد بن الهبولة، وقبل نهاية الضجاعمة كانت قبيلة بني جفنة قد نزلت ببادية الشام حول بئر ماء اسمه " غسان" وعرفوا بالغساسنة، ولما أدرك هؤلاء ضعف الضجاعمة استولوا على السلطة في بادية الشام وتحالفوا مع الرومان، وكانت (جلق)، عاصمة لهم وهي دمشق حاليا، وأشهر ملوكهم الحارث بن جبلة والمنذر بن الحارث وجبلة بن الأيهم وهو آخر ملوك الغساسنة.[17]

4- **مملكة كندة**: وبين إمارتي الحيرة والغساسنة قامت إمارة ثالثة في شمالي نجد هي إمارة كندة، ويرجع النسابون بها كما رجعوا بالمناذرة والغساسنة إلى عرب الجنوب، وقد ظلت شعبة كبيرة منها تقيم في مواطنها الأصلية بحضرموت إلى أن جاء الإسلام وعثر على نقوش تؤكد قيام هذه الإمارة الكندية في القرن 4 م[18].

وأشهر ملوكها في القرن 5 م حجر الملقب بآكل المرار، وخلفه ابنه عمرو المقصور وأعقبه ابنه الحارث، وفي عهده بلغت كندة ذروة مجدها[19].

1- **القبائل**: من الشروط التي تربط القبيلة بأفرادها العصبية، والشاعر جزء لا يتجزأ من قبيلته، معها في كل حين، صوابا أو خطأ، والقبيلة ترد له بالمثل، فتكافئه وتلبي له ما أراد، وهذا ما يسمى بالعصبية ويعرفها ابن خلدون بأنها: "النصرة لذوي القربى والأرحام إن نالهم ضيم أو أصابتهم هلكة"[20]

فالشاعر فضاؤه الذي يلقي فيه الشعر هو القبيلة، فهو الناطق باسمها، يدافع وينافح عنها بشعره، ويرد على الخصوم من شعراء القبائل الأخرى إن تعرضت للهجاء، ويرفع ويعلي من شأنها بالفخر والمدح، ولا تقام الاحتفالات إلا عند ثلاث مناسبات كما ذكر ابن رشيق:

1- إذا ولد غلام: فهو تكثير لعددها وإرهاب لأعدائها، ومزيد من قوتها وعزها.

2- إذا نتجت فرس: لأن الخيل عدة الحرب الأولى، ووسيلة القتال وتمهيد وتأكيد لوجود الفارس.

3- نبوغ الشاعر: لأنه المؤرخ الحافظ لسجلها، والقائد الموجه لجموعها.[21]

- وكان للقبيلة أندية ومقامات، ومجالس تعقد دوريا، ولا تعقد إلا بحضور الشعراء والخطباء والحكماء، فكانوا يجتمعون على الشعر، يفتتحون به مجالسهم ويختتمونها به، وحيثما وجدت الظاهرة الأدبية وجد النقد، ووجدت النفوس التي تستطعم حلاوة هذا الشعر، ووجدت النفوس التي تستهجن هذا الشعر.

سادسا: النقد الانطباعي في العصر الجاهلي: النقد الانطباعي هو الذي تغلب عليه الانطباعية غلبة شديدة، ويعتمد أكثر ما يعتمد على الذوق الفردي الخالص للناقد الذي يندفع إلى الاستحسان أو الاستهجان دون أن يقدم العلل لتبرير حكمه، ومثل هذا النقد لا يمكنه أن يسهم إسهاما كبيرا في تطوير الأدب والارتقاء به من صورته الساذجة إلى صورته الراقية، لأن الناقد في أحكامه التي يصدرها على الأثر الفني المنقود لا يبين للمبدع هفواته ومظاهر الضعف الموجودة في عمله كي يتجنبها في تجاربه التالية[22]، وإن بينها فهي عامة وسريعة وجزئية تحتكم إلى الذوق والانطباع. وهو نوعان:

1- النقد الغير معلل: هو ذلك النقد الذي يعتمد أصحابه على الذوق الغير الحكم كان يبني رأيه على الانطباع الذي يتركه البيت في نفسه ساعة سماعه القصيدة، فالحالة النفسية التي يكون عليها المتلقي وطبيعة التجربة التي يعبر عنها البيت هي السبب في الاستحسان أو الاستهجان، فلو تغيرت الظروف لغير صاحب الحكم رأيه فيما استجاده، فالأحكام النقدية لم تكن تستند إلى قواعد جمالية معينة، إنما كانت خاضعة للانفعال الوقتي المسموع.[23]

ولهذا النوع من النقد صور كثيرة نذكر بعضا منها:

1- نذكر المصادر القديمة من أن عرب الجاهلية كانت تحكم على بعض الأبيات بالتفرد فتقول: هذا أفخر بين، وهذا أمدح بيت، وهذا أهجى بيت، وهذا أغزل بيت[24]....دون ذكر الأسباب التي صير النقاد هذه الأبيات هكذا وتلقيبها بألقاب معينة.

2- تذكر المصادر أن حماد الرواية ذكر أن العرب كانت تعرض أشعارها على قريش، فما قبلوه كان مقبولا، وما ردوه كان مردودا، فقدم عليهم علقمة بن عبدة فأنشدهم قصيدته التي يقول فيها:

هل ما علمت وما استودعت مكتوم أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم؟

فقالوا: هذا سمط الدهر، ثم عاد إليهم العام المقبل فأنشدهم:

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

فقالوا: هاتان سمطا الدهر[25]

إذا تأملت التسمية التي أطلقتها قريش على قصيدتي علقمة تبينت فيها التعميم، واستنادا إلى الذوق والانفعال بما أنشد عليها من شعر فليس هناك تحليل وإبراز لنواحي الجمال التي جعلتها تستأهل لقب (سمطا الدهر)[26].

3- جاء في " الأغاني" أن: أبا عمرو الشيباني ذكر على لسان حسان: قدمت على عمرو بن الحارث (الغساني)، فاعتاص الوصول علي إليه، فقلت للحاجب بعد مدة، إن أذنت لي علي وإلا هجوت اليمن كلها ثم انقلبت عنكم، فأذن لي فدخلت عليه فوجدت عنده النابغة وهو جالس عن يمينه، وعلقمة وهو جالس عن يساره، فقال لي: يا ابن الفريعة، إني أخاف عليك هذين السبعين أن يفضحاك..... فأنشده علقمة بن عبدة قصيدته:

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب.

وأنشده النابغة: **كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب.**

وأنشده حسان قصيدته: **أسالت رسم الدار أم لم تسأل بين الجوابي فالبضيع فحومل**

فلم يزل عمرو بن الحارث يزحل عن مجلسه سرورا حتى قال: هذه والله **البتارة** التي بترت المدائح، أحسنت يا ابن الفريعة، هات له يا غلام ألف دينار لك علي كل سنة مثلها[27].

- من هنا نجد أن عمرو بن الحارث الغساني فضل قصيدة حسان على النابغة وعلقمة وأسماها بالبتارة، دون أسس نقدية ولا معايير فنية ولا مبررات أدبية وإنما الانطباع الذي تركته القصيدة في نفس الملك.

4- ذكر الأصفهاني قصة لبيد وهو غلام صغير رآه النابغة مع أعمامه عند النعمان بن المنذر، فتوسم فيه الشاعرية، فطلب منه أن ينشده الشعر فأنشده:

ألم تربع على الدمن الخوالي لسلمى فالمذانب فالقفال

فقال له: يا غلام أنت أشعر بني عامر، زدني يا بني، فأنشده:

طلل لخولة بالرسيس قديم فبعاقل فلأنعمين رسوم.

فضرب بيديه إلى جنبيه وقال: اذهب فأنت أشعر من قيس كلها أو قال هوازن كلها[28].

- فالنابغة من خلال قصيدة واحدة حكم على لبيد بأنه أشعر بني عامر، ورفعه بقصيدة أخرى على شعراء قيس أو هوازن واكتسب حكمه هنا صفة التعميم حيث لم يسمع من لبيد سوى قصيدتين، وحكمه جاء غير مبرر، فلم يذكر لنا الظواهر الفنية وغير الفنية التي توفرت في القصيدتين حتى استحق هذا التقدم (غياب التفسير والتعليل).

5- ذكر الأصمعي أن قصيدة سويد بن أبي كاهل التي مطلعها:

بسطت رابعة الحبل لنا فوصلنا الحبل منها ما اتسع.

قال عنها: العرب تفضلها وتقدمها وتعدها من حكمها، وأنها كانت في الجاهلية تسمى **"اليتيمة"**[29].

6- ذكر ابن عبد ربه في "العقد الفريد " وابن رشيق في " العمدة في محاسن الشعر وآدابه" وابن خلدون في مقدمة " أن العرب اختاروا قصائد من الشعر الجاهلي وكتبوها بماء الذهب في القباطي المدرجة وعلقوها بأستار الكعبة تعظيما منهم لتلك القصائد وإكبار لها[30].

- فتعليق القصائد في الكعبة بعد كتابتها يعد ضربا من النقد، لأن هذا يعبر عن المثل الجمالية التي كان يشترطها الناس في الشعر عصرئذ، لكننا لا نجد تعليلا عن المعيار النقدي الذي اختيرت على أساسه هذه المطولات وهؤلاء الشعراء[31].

- إن هذه الأمثلة كلها تدل دلالة واضحة على أن الأحكام النقدية التي كانت في العصر الجاهلي لم تكن مبنية على تعليلات أو تفسيرات أو أسس، بل كانت تعتمد على الانطباع الفردي والذوق الفطري الخالص، وهذا ما نسميه بالنقد الذاتي أو النقد الانطباعي بل هو النقد الغير معلل.

2- النقد المعلل في العصر الجاهلي:

ظهر هذا النوع من النقد في أواخر العصر الجاهلي، وهو الذي أسهم في دفع الحركة الشعرية نحو النضج الفني، هذا اللون من النقد يقدم عللا وأسبابا ومعايير على أساسها يحكم على الشعر بالجودة أو الاستهجان، وهذه الأحكام المعللة تتناسب مع طبيعة الحياة العقلية عندهم، ومن صور هذا النقد نذكر:

1- جاء في "الأغاني" و"الشعر والشعراء" أن" علقمة سمي بالفحل لأنه احتكم مع امرئ القيس إلى امرأته أم جندب لتحكم بينهما فقالت : قولا شعرا تصفان فيه الخيل على روي واحد وقافية واحدة، فقال امرؤ القيس: **خليلي مرا بي على أم جندب لنقضي حاجات الفؤاد المعذب**، وقال علقمة:

ذهبت من الهجران في كل مذهب ولم يك حقا كل هذا التجنب، ثم أنشداها جميعا.

فقالت لامرئ القيس: علقمة أشعر منك، فقال: وكيف ذاك؟ قالت: لأنك قلت:

فللسوط ألهوب وللساق درة وللزجر منه وقع أهوج منعب

فجهدت فرسك ومريته بساقك (زجرت فرسك وحركته بساقك وضربته بسوطك) وقال علقمة:

فأدركهن ثانيا من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب

فأدرك طريدته وهو ثان من عنان فرسه لم يضربه بسوط ولا مراه بساق ولا زجره، قال: ما هو بأشعر مني، ولكنك له وامق فطلقها فخلف عليها علقمة فسمي بذلك الفحل"[32]

فأم جندب لم تكتف بالاستماع ثم الحكم بعد الموازنة وإنما أصدرت حكما معللا حتى تنفي عن نفسها شبهة التحيز، ومع هذا اتهمها زوجها امرؤ القيس بالتحيز إلى علقمة[33].

فالقصيدة الأولى (امرؤ القيس) أظهرت فرسه كليلا بليدا بينما قصيدة علقمة، أظهرت صاحبه ثان من عنانه لم يضربه بسوط ولا مراه بساق ولا زجره، ففرسه كريم نشيط، فظاهرة التعليل واردة برغم اعتمادها على التعليل الجزئي.

2- جاء في "الشعر والشعراء" أن الشاعر المسيب بن علس وينسب إلى المتلمس أيضا مر بمجلس بني قيس بن ثعلبة فاستنشدوه فأنشد:

ألا أنعم صباحا أيها الربع وأسلم نحييك عن شحط وإن لم تكلم، فلما بلغ قوله:

وقد أتناسى الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكدم، والصيعرية هي صفة للنوق لا للفحول[34].

فسمعه طرفة وهو صبي ينشد هذا فقال: استنوق الجمل! فضحك الناس وصارت مثلا[35].

3- كانت تضرب للنابغة الذبياني بسوق عكاظ قبة حمراء من أدم (جلد) فتأتيه الشعراء، فتعرض عليه أشعارها، فكان أول من أنشد: الأعشى ميمون بن قيس أبو بصير، أنشد مطولته التي أولها:

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي وما ترد سؤالي، ثم أنشده حسان بن ثابت الأنصاري:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فقال له النابغة: أنت شاعر ولكنك أقللت جفانك وأسيافك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك[36].

فانتقده النابغة من جهتين:

1- الصياغة واختيار المفردات اللغوية، حيث قال: (الجفنات) وهم جمع يدل على القلة، ومجال الفخر كان يقتضي إظهار الكثرة، مبالغة في الكرم بأن يأتي بجمع التكسير(الجفان)، كما عاب عليه قوله (يلمعن بالضحى) وأحسن منه أن يقول (يبرقن بالدجى)، لأن الضيف بالليل أكثر طروقا، وأيضا قوله (يقطرن من نجدة دما) لأنه يدل على قلة القتل.

2- تتصل بالمعنى العام لسياق الفخر، حيث ترك حسان الفخر بآبائه وافتخر بمن ولدت نساؤه[37].

4- يروى أن النابغة الذبياني حينما قال قصيدته في المتجردة زوجة النعمان بن المنذر، وقع فيها في الإقواء فقد افتتحها بقوله: **أمن آل مية رائح أو مغتدي عجلان ذا زاد وغير مزود**

ثم قال: **زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك خبرنا الغراب الأسود**

فلما جاء المدينة حاول أهلها أن ينبهوه إلى هذا العيب في شعره، فلم يستطع أن يفهم ما يريدون، فجاءوه بقينة فجعلت تغنيه، و جعلت تشبع حركة الدال وتطيلها (مغتدي) و(مزود) ثم غنت البيت الآخر فبينت الضمة في قوله (الأسودُ) ففطن بذلك لما يريدون، فغير عروضه وجعله "وبذاك تنعابُ الغرابِ الأسودِ"، ومن أجل ذلك كان يقول: " دخلت يثرب وفي شعري شيء وخرجت وأنا أشعر العرب"[38]

5- "تحاكم الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وعبدة بن الطبيب والمخبل السعدي إلى ربيعة بن حذار الأسدي في الشعر، أيهما أشعر؟ فقال للزبرقان: أما أنت فشعرك كحلم أسخن لا هو أنضج فأكل ولا ترك نيئا فينتفع به، وأما أنت يا عمرو فإن شعرك كبرود حبر يتلألأ فيها البصر، فكلما أعيد فيها النظر

نقص البصر، وأما أنت يا مخبل فإن شعرك قصر عن شعرهم وارتفع عن شعر غيرهم، وأما أنت يا عبدة فإن شعرك كمزادة أحكم خرزها فليس تقصر ولا تمطر"[39]

قدم ربيعة بن حذار الأسدي الدليل على صواب حكمه، فشعر عمرو بن الأهتم يعجبك لأول مرة لألفاظه البراقة وأساليبه الخلابة، لكن إذا أطلت فيه النظر والتأمل وأعدت قراءته لم تجد وراء جمال لفظه شيئا ذا بال، أما شعر الزبرقان فإن متلقيه لا يستجديه مثلما لا يستجيد الآكل لحما غير ناضج أسخن، وشعر المخبل شعر متوسط لا يرقى بصاحبه إلى مرتبة الفحول ولا ينحط إلى درجة كلام المتشاعرين، أما شعر عبدة بن الطبيب ففيه جزالة وإحكام وقوة، فلا يرى فيه الناظر ضعفا ولا يلمح في أساليبه أو معانيه وهنا فهو أشعر من أصحابه[40].

6- وإضافة إلى هذه الصور من النقد المعلل هناك نصوص أخرى يمكن إدراجها في هذا النوع من النقد، منها: قول ابن قتيبة والحطيئة :" ومن الشعراء المتكلف والمطبوع، فالمتكلف هو الذي قوم شعره بالثقاف، ونقحه بطول التفتيش وأعاد فيه النظر بعد النظر كزهير، وكان الأصمعي يقول: زهير والحطيئة وأشباههما من الشعراء عبيد الشعر، لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين، وكان الحطيئة يقول: خير الشعر الحولي المنقح المحكك، وكان زهير يسمي كبرى قصائده الحوليات"[41].

وقال الجاحظ: " ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا وزمنا طويلا، يردد فيها نظره ويجيل فيها عقله، ويقلب فيها رأيه اتهاما لعقله وتتبعا على نفسه فيجعل عقله زماما على رأيه و رأيه عيارا على شعره إشفاقا على أدبه وإحرازا لما خوله الله من نعمته، وكانوا يسمون تلك القصائد: الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات"[42].

7- ومن المشاهد التي روتها كتب المصادر أن النابغة أنشده الأعشى مرة ثم أنشده حسان ثم شعراء من بعده، ثم الخنساء، إذ أنشدته قصيدتها في رثاء أخيها صخر التي منها:

وإن صخر لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وقد أعجب النابغة بالقصيدة فقال لها: لولا أن أبا بصير يعني الأعشى أنشدني لقلت: إنك أشعر الجن والإنس، وقد حكم للأعشى على أنه أشعر شعراء الموسم، وإن الخنساء تليه منزلة وجودة شعر، وهذا ما دفع حسان بن ثابت للاستياء ورفض حكم النابغة،إذ قال له: "والله لأنا أشعر منك ومن أبيك فقال له النابغة يا ابن أخي، أنت لا تحسن أن تقول:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

خطاطيف حجن في حبال متينة تمد بها أيد إليك نوازع[43]

قال: فخنس حسان بقوله[44].

8- وهناك نص آخر أورده صاحب "الوساطة" يمكن أن يساعد كثيرا على توليد القناعة التي كونتها لدينا المجموعة المتقدمة من النصوص، في سياق الموازنة بين القدماء والمحدثين في استخدام البديع، يقول القاضي الجرجاني: "وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب وشبه فقارب، وبده فأغزر، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ولم تكن تعبأ بالتجنس والمطابقة، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة، إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض"[45]

ما يهمنا في هذا النص هو نسبة المقاييس الواضحة في تقويم الشعر إلى العرب (عرب ما قبل الإسلام).

إن أحكام الجاهليين لم تكن كلها انطباعية تعتمد فحسب على الذوق الفني الفطري، وإنما كانت لهم مقاييس جمالية معينة أيضا يحتكمون إليها في قبول الشعر ورفضه، وهي مقاييس إذا أمعنا فيها النظر رأينا أنها لا تتناقض مع طبيعة حياتهم،..... فقوة لغة الشعر وجزالتها شيء يتوافق مع طبيعة البيئة الجاهلية التي كانت تتميز بالصعوبة وخشونة العيش وشظفه، فبساطة الحياة عند الجاهليين لا تتوافق مع المبالغة في التعقيد والإسراف في الزخرفة البديعية[46].

وخلاصة ما تقدم إن النقد عند الجاهلين نوعان:

- لون قائم على الانفعال الوقتي بالأثر الفني، فالناقد لا يهتم فيه بالبحث عما يبرر حكمه وهذا النوع هو الذي تصدق عليه أحكام الصور التي تناولناها في **النقد الغير معلل**.
- وهناك لون آخر من النقد كان أصحابه يقدمون الحيثيات التي تقوم دليلا على صحتها في تقديرهم، وهو **النقد المعلل**، وهذا النوع من النقد هو الآخر لم يكن يتناول القصيدة تناولا شاملا، بل ما جاء الحكم فيه مبنيا على مجموعة قليلة من الأبيات، ويبدو أن للشفوية أثرا في ذلك، لأن النظر إلى كل عناصر القصيدة وأقسامها عند تقويمها يتطلب أن تكون مكتوبة، والكتابة في ذلك الوقت لم تكن منتشرة في متناول العام والخاص، ثم إننا لا نجد في هذا النقد فكرا عميقا ولا قدرة فائقة على التحليل والموازنة، إنما كان ذلك بقدر ما أتاحته طبيعة الحياة عندهم[47].

[1] – احمد شلبي، التاريخ الإسلامي، ط 12، 1987،، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص 154.

[2] – ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء ص 4، (المكتبة الشاملة).

[3] – أبو الفرج الأصفهاني – الأغاني، ج 1 ، ص 168(المكتبة الشاملة).

[4] – أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص 155.

[5] – أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج 2، ص 426، (المكتبة الشاملة).

[6] – قدامة بن جعفر: نقد الشعر، ج1 ، ص 01 (المكتبة الشاملة).

[7] – ايليا حاوي: فن الخطابة وتطوره عند العرب، دار الثقافة، بيروت، ص 20.

[8] – الجاحظ: البيان والتبيين، ج 1، ص 73 (المكتبة الشاملة) .

[9] – منذر معاليقي: دراسات نقدية في الأدب الإسلامي، ص 84.

[10] – ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج1 ، ص 01، (المكتبة الشاملة).

[11] – حسين الحاج حسين: أدب العرب في عصر الجاهلية، ص 30 .

[12] – حسين الحاج حسين، أدب العرب في عصر الجاهلية، ص 34 .

[13] – المرجع نفسه، ص 41 .

[14] – عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1972، ص 167.

[15] – أبو الفوج الأصفهاني، الأغاني، ج3، ص 65 (المكتبة الشاملة) .

[16] – أحمد شلبي: الموسوعة في التاريخ الإسلامي: ج1، ص 108.

[17] – المرجع نفسه، ص 109، وما بعدها.

[18] – شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، (العصر الجاهلي)،48

[19] – المرجع نفسه، ص 49.

[20] – المقدمة: ابن خلدون، ج1، ص 62.

[21] – إخلاص فخري عمارة: الشعر الجاهلي بين القبيلة والذاتية، مكتبة الآداب، القاهرة، ط2، 1421هـ- 2001 م، ص 26.

[22] – المرجع السابق، ص 20 وما بعدها.

[23] – عبد القادر هني : دراسات في النقد الأدبي عند العرب من الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي،opu ، الجزائر، 1995 م، ص 22 وما بعدها.

[24] – نفسه، ص20 وما بعدها.

[25] – المصدر نفسه، ج 5، ص 392(م ش)

[26] – هني عبد القادر:دراسات في النقد الأدبي عند العرب من الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي، ص23.

[27] –الأصفهاني أبو الفرج:الأغاني،ج 4، ص 178 (المكتبة الشاملة)

[28] المصدر نفسه، ج4، ص247المكتبة الشاملة)

[29] – نفسه، ج3، ص443(المكتبة الشاملة)

[30] – هني عبد القادر:دراسات في النقد الأدبي عند العرب من الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي، ص22

[31] –المرجع نفسه، ص24.

[32] – ينظر:الأصفهاني: الأغاني،ج 5، ص392، وابن قتيبة:الشعر والشعراء،ج1، ص39.(المكتبة الشاملة)

[33] – عتيق عبد العزيز: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص24.

[34] – أي أنت يا مسيب كنت في توصيف الجمل، فلما قلت(الصيعرية) عدت إلى ما توصف به النوق، وهذا نقد يدل على تبصر طرفة بمعاني الألفاظ ومواضع استعمالها، ويدل هذا أيضا على فطنته إلى مثل هذا الخطإ اللفظي.

[35] – ابن قتيبة:الشعر والشعراء،ج1، ص31.(المكتبة الشاملة)

[36] – ابن جعفر قدامة:نقد الشعر، ص09(المكتبة الشاملة)

[37] – محمد عبد المطلب: جدلية الافراد والتركيب في النقد العربي القديم، ص25.

[38] – العسكري أبو هلال: الصناعتين،ج1، ص16 (المكتبة الشاملة)

[39] – المرزباني: الموشح، ص107 وما بعدها.

[40] – هني عبد القادر: دراسات في تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص33.

[41] – ابن قتيبة:الشعر والشعراء،ج1، ص05.(المكتبة الشاملة)

[42] – الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص 121.(المكتبة الشاملة)

[43] – النوازع:الجواذب، المنتأى: النائي، الحجن: الموجعة، يقول:"أنا في قبضتك متى شئت قدرت علي كأني في خطاطيف تجذبني إليك ولا أقدر على الهرب منك".

[44] – الحسين قصي: تاريخ النقد الادبي عند العرب واليونان من خلال أعلامه، ص 18، وينظر الاصفهاني: الاغاني، ج11، ص6.

[45]– الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، 33 وما بعدها.

[46]– هني عبد القادر: دراسات في تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص35وما بعدها.

[47]– هني عبد القادر: دراسات في تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص37.